

## ارتكاسات نقد العقل قراءة فى مسارات النظرية النقدية

عبدالله موسى

قسم الفلسفة - جامعة وهران - الجزائر

لقد حصلت «مدرسة فرانكفورت لعلم الاجتماع الألماني» على طابعها المؤسس عبر تأسيس «معهد البحوث الاجتماعية» فى عشرينات القرن العشرين ، ذلك المعهد الذى وضع ضمن جامعة فرانكفورت . وجاء تأسيس المعهد عبر هبة وقفية، جعلت من شخصيات من مثل «تيودور أدورنو (١٩٠٣ - ١٩٦٩) وماكس هوركهايمر (١٨٩٥ - ١٩٧٣) ، أبرز العاملين بالمعهد منذ تأسيسه، علما على العالم الفكرى والسياسى «لجمهورية فايمار» ولما بعدها حتى الفترة المعاصرة. وفى عام ١٩٣٠ صار «ماكس هوركهايمر» مديرا للمعهد ، ومحورا لتلك الدائرة من الباحثين ، الذين وجدوا فى النظرية الماركسية المرشد الأهدى لفهم ظروف العصر المحيطة بهم . وقد أخذ أتباع «النظرية النقدية» على عاتقهم مسألة قراءة التاريخ الفكرى الألماني من جديد مثل رؤى «نيتشه وشوبنهاور» ، فى ضوء المادة التاريخية . وفى عام ١٩٣٧ نشر «هوركهايمر» مقالته الشهيرة بعنوان «الرؤية التقليدية، والنظرية النقدية» فصارت من جهة دليلا نظريا لمدرسة فرانكفورت، وتوجهاتها الجديدة ، ومن جهة ثانية مصطلحا لأخفاء الأساس الماركسى للمدرسة (نقدى بدلا من ماركسى)، وكانت مجلة المعهد المسماة : «مجلة البحوث الاجتماعية» مجالا لنشر أهم بحوث العاملين فى السنوات اللاحقة على تأسيس المعهد . رغم الاختلافات النظرية بين أعضائها الناجمة عن النتائج المتميزة للبحوث والاهتمامات من جهة ، واختلاف الأمزجة الفردية من جهة ثانية.

ومع وصول النازيين للسلطة عام ١٩٣٣ بدأ عهد التشرد بالنسبة للعاملين والدارسين في معهد فرانكفورت ، اتجاه فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.. حيث تابعوا عملهم في تطور «النظرية النقدية» وفي عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠ عاد إلى ألمانيا الاتحادية كل من «أدورنو، وهوركهايمر ويولوك» . وانضم إليهم لاحقا في أواخر الخمسينات «يورغن هابرماس وجان بياجيه» اللذين أسهما إلى حد بعيد في بلورة الطابع الخاص للمدرسة ، والتعريف بها ، وبالاتجاهات النقدية الممثلة في علم الاجتماع «بفرنكفورت» .

### النظرية النقدية وارتكاسات عصر التنوير :

لقد بدأ أقول عصر التنوير مع مطلع القرن التاسع عشر ، بعدما وصلت حركة التنوير إلى درجة متطورة من التأسيس على يد «كانط» في ألمانيا، فلم نعد نشهد نظريات علمية كما كان (الكبيلر، جاليلي ، نيوتن) وحتى الفلسفة وقفت أبنيتها المحكمة عند «كانط» ، بل لم يعد القرن التاسع عشر وما بعده يشهد سوى شروح لمذاهب ، أو تلقين لمذاهب فلسفية مختلفة على نحو الأفلاطونية المحدثة، الديكارتية الجديدة . ومراجعات هنا وهناك .

لقد كانت بداية النزول في اتجاه مضاد مع «حركة الرومانتيك» \* التي انتشرت في باقي أوروبا .

فبعدها كانت حركة التنوير تقول بالفردية والذاتية وتحلل المرء من كل التقاليد الموروثة والظروف التي وجد فيها ... والقضاء على كل أثر من آثار العصور الوسطى ، والفصل بين عالم التجربة وعالم العقل المجرد ... على العكس من ذلك كله حركة «الرومانتيك» أرادت أن تزج بالفرد وسط الأمة ، وأن تخضعه خضوعا تاما لسلطان الدولة والكنيسة. ولظروف الزمان الذي وجد فيه والجنس

---

\* حركة الرومانتيك القرن ١٩ (بالضبط ١٨١٥ مؤتمر فينينا ١٨٤٨) ظهرت حركة الرومانتيك كمعارضة لحركة التنوير وكرفض للطابع المجرد الشخصي للعقلانية إذا أصبحت بحث فيما قبل العقل وفيما بعد العقل

الذي ينتمي إليه والمكان الذي يقيم به ويحيا ماضيه كله في نفسه ، ماضى أمته وتقاليدها وأساطيرها وأحداثها .. فأصبح الإنسان كتلة من الماضى مرتبطة بمكان معين ، ومحدودة بزمان معلوم . وبالتالي أصبحوا يقدسون العصور الوسطى ويعدونها أرقى العصور الإنسانية وأخلقها بالفضيلة، وأقربها إلى تحقيق مثلهم ، بل لم يعودوا يفصلون بين عالم التجربة وعالم العقل المجرد بل يعدونها من نسيج واحد لا وجود لأحد منهما دون الآخر . فى حين الموقف الذي يتبناه العقلانيون المعاصرون من تاريخ الفلسفة هو موقف فى الفلسفة وفى تاريخ الفلسفة غير أنهم لا يعتبرون أنفسهم امتدادا استمراريا لا للعقلانية الكانطية ولا للعقلانية الكلاسيكية ، كون العقل فى منظورهم يراجع نفسه ويعيد فيها النظر فى ذاته باستمرار ، فهو فى نقاش أزلي وصراع أبدي مع ذاته .. «فالعقل لا يقر له قرار ، حركته الحقيقية هى «النفى والتجاوز ، نفى غير ألى ، بل تركيبى وتوسعى» (١) .

ضمن هذا السياق النقدي للعقل وللعقلانية النسقية السابقة ، يبرز موقف النظرية النقدية من خلال «أرنست بلوخ (١٨٨٥ - ١٩٧٧) أبرز منظري المدرسة، فى دراسته عن عصر النهضة وكل من «تيودور أدورنو» «هوركهايمر» اللذين ألغا كتاب «جدل التنوير» واهتما بتقديم فلسفة غير تقليدية ، لا تهتم بالاتجاهات النظرية فى تاريخ الفكر قدر اهتمامهما بالبنية العامة للمجتمع كما تنعكس فى العقل، إذ بحثا مصائر العقلنة وإمكانيتها للتحرر رغم مشكلاتها الضخمة بإيقافها أمام «محكمة العقل» (كانط) . وحكمها يمكن تبينه من خلال مسألتين : القول بأن الأسطورة - فى زمانها - تعقل ، كما أن التعقل المعاصر أو التنويرية المعاصرة تتجه لتكون أسطورة من جديد . أما بالنسبة للأسطورة فقد أوضحها بأن الجماعات البشرية فيما قبل التاريخ حاولت التخلص من تحكم الطبيعة.

---

(١) انظر : «سالم يفوت» فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة ، دار الطليعة، بيروت ط ١ ، ١٩٨٢ ، ص ٦٥ و٦٦ .

فالإنسان الأول القادر على «الاصطلاح» أو «التعبير» اتخذ الطبيعة موضوعاً بأن جعلها أداة أو وسيلة لأغراضه ، ففي الأسطورة إعادة تشكيل للطبيعة حسبما يراه الإنسان . وهكذا فإن الطبيعة ما تزال تقف في مواجهة العقل والتعقل باعتبارها مهددة . ويواجه العقل هذه القضية عن طريق المضى قدما في عملية عقلنة كل المجالات الحياتية ، وإذن الحل ليس في «الخروج على العقل» أو إزالته ، بل في أن «يتعقل العقل تعقله» أو ينور العقل تنويره .

وعليه يطرق «أدورنو» موضوع فلسفة التنوير من خلال إثارة أسئلة حول بنية العقل المعاصر .. فيتساءل هل الصورة التي وصلت إليها الحضارة المعاصرة هي نتيجة لفلسفة التنوير ، التي استبعدت الإبعاد المختلفة للعقل وجعلته يقتصر على العقل العلمي والتكنولوجي ، وتم استبعاد صور العقل الأخرى، مثل العقل الخيالي ، والأسطوري؟ «إن نقد التنوير هو نقد العقل ذاته» (١).

إذ نتيجة اتساع السوق وسيطرة العقل الحسابي أصبح الموجود المادى هو العقل الذى يتحكم في مصير الإنسان المعاصر وتم إغفال الأبعاد الأخرى كدور العلم التحريري للإنسان مثلا . إذ أصبح ضروري نقد العلم الغربي في صورته الجزئية التي ساهمت في تفتيت الوعي الإنساني وفي خلق أسطورة المردود والعقل الاستهلاكي - فأى نقد لهذه الحضارة يبدأ من نقد العقل - بحيث إذا كانت فلسفة التنوير تدعو إلى استخدام العقل في كل شيء فإن «أدورنو» يدعونا إلى استخدام العقل في مجال جديد هو نقد العقل نفسه في استخدامه كبنية اجتماعية للسيطرة والقمع (٢). ولذا يرى «أدورنو» أن فلسفة التنوير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أخلطت بين استخدامات العقل المطلقة. إذ تم

---

(١) سالم يفوت (المرجع السابق) ص ٨٨

(٢) أنظر مقال ابراهيم الحيدري : «النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير» ، دراسات عربية عدد

٩ و ١٠ السنة ٢٥ يوليو/اغسطس ١٩٨٩ ، ص ١١٠

استخدام العقل فى البحث فى مجالات سبق «كانط» أن بين أنها تتجاوز قدرة العقل الإنسانى ، وقد تم تعميم ما توصل إليه العقل فى تلك الفترة على باقى التاريخ الانسانى .. أما القرن الثامن عشر الذي تنتمى اليه فلسفة التنوير لا يمثل الا لحظة من لحظات تاريخ العقل لأن فلسفة التنوير هى تجميع وتكريس لميراث العقل الذى تجاوز الحدود التى حددها «كانط» من قبل - حينما كان العقل هو القوة الفاتحة - ولأن فلسفة التنوير اهتمت بدراسة جهد الإنسان فى الانتاج والتأثير على الطبيعة دون الاهتمام بالحركة الاجتماعية الناجمة عن ذلك ودون الأبعاد الأنطولوجية للإنسان ، وإذن فالعقل الغربي مهدد منذ ولادته بخطر اللاعقل، إذ كلما اكتسب العقل الدقة والسيطرة على موضوعه ازداد انغلاقا على نفسه لأنه يفرض على نفسه معايير الدقة التى يفرضها على الموضوع الخارجى. وبالتالي فإن العقل فى صورته الراهنة لا يقل عن الأسطورة . إذ وقع العقل فيما أراد التحرر منه - كونه المعرفة العلمية تسربت الي العقل الفلسفى المعاصر، الذى أصبح يعتبر التقنية أو الآلية هى جوهر المعرفة الفلسفية والتقنية . مما يعنى التحول الكامل للعالم الطبيعى والاجتماعى - لأنها تؤثر فى الذات والموضوع والعمل واللغة وكل أنماط العلاقة التى تربط الإنسان بالعالم - أى تحول العلم والإيديولوجية والفلسفة إلى أدوات فى خدمة السيطرة التى هى بمعنى من المعانى جوهر المجتمع الذى نشأ عنه هذا الاستخدام للعقل - وإذن فهى عودة العقل الى اللاعقل الى الخرافة ... فى هذا الصدد : يرى كل من «هوركهايمر وأدورنو» : أن الانتحار الذاتى لعصر التنوير كان قد أجبر الفكر على تعطيل نفسه حتى حد السذاجة مقابل التمسك بالتقاليد الفكرية الجديدة للفكر الوضعى الذى اختار لنفسه طريق التحول نحو السلبية وتحطيم ما بناه بنفسه (١) .

---

(١) انظر مقال : ابراهيم الحيدرى «الحضارة والمدنية» - طروحات فى النظرية الاجتماعية والمجتمع ، نشرية رقم ١٠ ، منشورات معهد العلوم الاجتماعية ، عنابة ، الجزائر ، ١٩٨٣ ص ٤١ .

إذ العقل فى نظر «أورنو» لى ملكة أو خاصة للإنسان وإنما هو موقف يقود السعى إلى المعرفة من أجل السيطرة» \* . لذلك هو موقف يرتبط بأنماط التنظيم الاجتماعى .. فالعقل بعد التنوير جعل الإنسان يخاف من أى شىء لا يخضع لقاعدة ما أو لعدد كى . وصل العقل إلى البناء كونه متناسق ومنسجم لكنه متكرر كالأسطورة٤ . لأن النزعة العقلانية لعصر الأنوار كانت نزوة إنسانية كونها كانت تجمع بين احترام وعبادة الإنسان ، من حيث هو كائن حر وعقلانى ، وذاتفاعلة فى الكون وكونها حملت معها فى صراعها ضد الأسطورة ، الأمل فى معرفة تجريبية ذات أساس وقابلة للاختبار .

يقول «هوكهايمر» : «عندما ندرك أن عصر التنوير والتقدم الفكرى ، يعنى تحرير الإنسان من الخرافة والشر ، والجن والسحر والقدر الأعمى - وباختصار التحرر من الخوف ، فإن هذا الانبهار الذى يدعى اليوم بالعقلانية ، هى أعظم خدمة يمكن أن نقوم بانجازها اليوم» (١) . لكن العقل «الأسطورة» أصبح قابلاً للتفكير بنتيجة ردود أفعال كالرومانسية والدين .. وبالتالي رفض الطابع المجرى الشخصى للعقلانية ، فظهرت كينونات مقاومة قدمت الإنسان ككائن (وجدانى وعاطفى «روسو» ١٧١٢ - ١٧٧٨) - وكذات (لا يمكن إرجاعها إلى أى شكل من أشكال العقلنة) كيركيجارد (١٨١٣ - ١٨٥٥) أو الكون أشياء أخرى غير القوانين الميكانيكية ، (فالحياة عاقلة أو عقلية) شوبنهاور ١٧٨٨ ، ١٨٦٠ نتشه ١٨٤٤ ، ١٩٠٠ . فالعقلانية ذات الطابع المجرى ، التى رفضها «أورنو» لم تنجح فى سد الفراغ الذى تركته تنحية الميت والمقدس ، فالعالم المعقلن ، والمنزوع من معناه ، يقود حسب (فيبر ١٨٦٤ ، ١٩٢٠) إلى تعدد القيم ، وإلى العدمية،

---

\* تحديد العقل كموقف يعكس معظم طروحات مدرسة فرانكفورت النقدية كتجاوز للتحديدات السابقة خاصة مفهوم العقل الكلى أو الكليانى ، وحتى مفهوم العقلانية التى قدمت ذاتها كأيديولوجية للتحرر والتقدم

(١) علاء طاهر : «مدرسة فرانكفورت» (من هوركهايمر إلى هابرماس) منشورات مركز الانماء

القومى ، بيروت ، ط ١ ، ( ب . ت ) ص ٦٦

التي وضحها «نيتشه» بشكل جيد . فامتداد «العقلانية الأدواتية» \* تنتهي فيما يظهر إلى عقلانية جديدة ، وغياب المعنى كقسمة من عالم يتحلل من الإلهي ، يقول إلى فضح العقل ببساطة . وبعدما أصبحت العقلانية مكبلة بسيطرة الدولة والنزعة المؤسساتية .. أصبح الانزلاق إلى «اللاعقلانية» ، هو الوضع التحرري الأول بفضل خروجه من عقلانية مصطنعة ومجهضة أصلا ، وبالتالي غدت الفلسفات اللاعقلانية ذات دور وظيفي وما هو عقلاني مقترنا بمدى انغلاقه عن «عقلانية الواقع» ، فمن هذا المنظور نجد «نيتشه» لا يقبل أي نوع من القوانين التي نعترف بها ، ولا يفرض تلك التي شرعها الإنسان فحسب بل يشمل رفضه كل قوانين الطبيعة . أي أن (العقلانية) لم يعد ذلك المفهوم البسيط الذي استمده المفكرون والفلاسفة .. من فلسفة الأنوار والعلوم الوضعية ومن توظيفها في مختلف مجالات الحياة .

إذ تفجرت مفاهيم العقل العقلانية والمعقول والمعقولة في مستوى المعرفة وفي مستوى العمل والعلاقات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية ، بحيث أصبحت «مهمة تعيين معايير العقلانية في المعرفة وفي السلوك من أصعب المهمات وأشدّها إلحاحا في الفكر المعاصر» . على حد تعبير «نصيف نصار»<sup>(١)</sup> فقد يكون معيار العقلانية العلية الميكانيكية ، أو الاحتمالية أو الجدلية، وقد تكون المنفعة والبرج . . وقد يكون التماسك الصوري ، أو الفعالية العالية، أو تحقيق العدل أو المحافظة على النظام أو التصرف الهادف المصيب ، أو غير ذلك . وقد يكون عقلانيا لفلان ما ليس عقلانيا لفلان آخر . والملاحظ بشكل عام هو أن عقلنة الشؤون الانسانية تناول الوسائل أكثر مما تتناول الدوافع والأهداف والغايات .

\* العقلانية الأدواتية : هي تلك التي تقيم الوسائل أو القواعد التقنية المحصلة بغاية إنجاز هدف

محدد .

(١) انظر مقال «نصيف نصار» الشفافية والعقلانية والتحرر الإنساني «مجلة دراسات عربية» عدد

٣ - السنة ٢٠ يناير ١٩٨٤ ، ص ١٢ .

ومن هنا يتبين أن العلاقات العقلانية بين الإنسان والإنسان تتداخل بشكل عميق وكثيف مع علاقاته اللاعقلانية ، أى علاقاته التى تنبع من عالم اللاعقل ، عالم الأهواء المعارضة والرغبات المتنافرة والمصالح المتناقضة ، كما يتبين بسبب استحالة نفى اللاعقل من عالم الإنسان\* ولذا فإن عقلنة العلاقات الاجتماعية، والحياة الإنسانية بصورة عامة ، مهمة مفتوحة ، لا تنتهى ولا تعرف الحل المثلّى المطلقة . إن عالم اللاعقل فى الإنسان فى الحياة الفردية وفى الحياة المجتمعية يبدو اليوم بعد اكتشاف التحليل النفسى والعلوم الاجتماعية السلوكية والبنوية .. أصبح من الصعب اليوم الدفاع عن الوعى والعقل بنفس روح التفاؤل الذى كان فى عصر الأنوار ، لأن الإيمان بقدرة العقل على التفسير والفهم أصبح لا يعنى اليوم الاقتصار على المعقول فحسب ، بل اللامعقول أيضا يدخل فى دائرة التفسير العقلى .

ولكن هل يمكن مواجهة اللاعقل بشيء آخر غير العقل ؟ . أن العقل الإنسانى يتواكب مع رفض الخوف من تقليص مقدرتنا على التفكير، فليس المفروض التحكم فى الواقع بل المفروض نقده على أساس أنه واقع قابل للتغيير .

ويبقى فى النهاية الاستنتاج أن النقد الراديكالى للعقل والتعقل الذى يبدو عند «أورنو وهوركهايمر» ينتمى إلى الشمولية الشكلية اتجاه الايديولوجيا عند «نتيشه» ، أكثر مما ينتمى إلى النظام الايديولوجى عند «ماركس» .

ومما سبق يمكن أن نبين أن «النظرية النقدية» ظلت أفقا واسعا وعاليا فى الواقع ، فإن الأفكار والتفسيرات كانت كثيرة ومتمايزة ، وتملك طابعا غير مكتمل ويحتاج إلى التطوير والتعديل والتكميل .

كما يبدو اليوم للكثيرين أن «النظرية النقدية» قد تم تجاوزها ، لكن مهما بلغ شك الباحثين والدارسين فى جدوى رؤى المدرسة ، نظرياتها فى المعرفة،

---

\* كون هذه العلاقة فصلت بين النشاط العقلى والظروف المادية والأسباب التى تؤدى إليه .

واختلافات أعلامها ، فإن في بعض كتاباتها وتوجهاتها ما يمكن الإفادة منه، وما المحاولات المستمرة للتجديد والنقد والتصحيح داخل المدرسة ، إلا دليل علي مساعي رجالها المستمرة للوصول إلى معرفة أكثر دقة ، كما أنها دليل على ذلك التوتر بين النظرية والواقع .

وما كثرة الاتجاهات المتعارضة داخلها إلا سعى نحو تكوين نظرية شاملة للمجتمع وعنه . إذ كان هدفها كمنظرية - عن طريق النقد الراديكالي لظروف وأشكال الاغتراب في المجتمع والواقع - الوصول إلى عالم واع ومتمحور . وإذن الاختلاف المؤسس داخلها كان نتيجة وتعبير عن تعقيدات الواقع . وهنا تكمن مشروعيتها كمدرسة نقدية .

### هوامش ومراجع :

\* حركة الرومانتيك القرن ١٩ ( بالضبط ١٨١٥ مؤتمر فيينا ١٨٤٨ ) ظهرت حركة الرومانتية كمعارضة لحركة التنوير وكرفض للطابع المجرى الشخصى للعقلانية إذا أصبحت تبحث فيما قبل العقل وفيما بعد العقل .

(١) انظر : «سالم يفوت» فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة . دار الطليعة . بيروت ط . ١ ، ١٩٨٢ ، ص ٦٥ و ٦٦ .

(٢) سالم يفوت (المرجع السابق ) ص ٨٨ .

(٣) انظر مقال ابراهيم الحيدري : «النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير» ، دراسات عربية عدد ٩ - ١٠ السنة ٢٥ يوليو / أغسطس ١٩٨٩ ، ص ١١٠ .

(٤) انظر مقال : ابراهيم الحيدري «الحضارة والمدنية - طروحات في النظرية الاجماعية والمجتمع ، نشرية رقم ١٠ ، منشورات معهد العلوم الاجماعية، عنابة . الجرائر ١٩٨٣ ، ص ٤١ .

(\*) تحديد العقل كموقف يعكس معظم طروحات مدرسة فرانكفورت كتجاوز للتحديدات السابقة خاصة مفهوم العقل الكلي أو الكلياني ، وحتى مفهوم العقلانية التي قدمت ذاتها كإيديولوجية للتححر والتقدم .

(٥) علاء طاهر : «مدرسة فرانكفورت» (من هوركهايمر إلى هابرماس) منشورات مركز الإنماء القومي . بيروت ط . ١ . (ب . ت ص ٦٦) .

(٦) انظر مقال «نصيف نصار» الشفافية والعقلانية والتحرر الإنساني «مجلة دراسات عربية . عدد ٣ ، السنة ٢٠ يناير ١٩٨٤ ، ص ١٢ .

(\*) كون هذه العلاقة فصلت بين النشاط العقلي والظروف المادية والأسباب التي تؤدي إليه .